أيمان النصارى الملكانيين* -

من قلم حبيب زيات (اغالون : فرنسة)

روى ابن فضل الله العمري ، بهذا العنوان ، نصّ اليمين التي كان الملكيون يُستحلفون بها في زمانه ، في الدولة المصرية. ويدخل في هذا اللقب خصوصاً ملوك الروم والافرنج وامراء الصليبيين ، فيما عدا الروم البلديين في مصر والشام . وكانت اليمين تُطلب منهم في اوقات الهُدَن والموادعات والعهود . وان الحلف بها كان يجري دائماً بين يدي بعض اساقفة الملكيين ورؤساء ديراتهم ورهبانهم ، وبحضور تراجمة الديوان . ومن طالع اليوم هذه الاقسام يعجب كيف كان يتسنّى للتراجمة فهم بعض الفاظها وعباراتها وتأدية معناها . ومن اشد الحرمان والخسران ان لا يكون حُفظ لنا متن ترجمة منها في اللسان الرومي او الفرنجي لنرى هل كان المستحلَفون يستطيعون ان يسمعوها او يتلفظوا بها دون ان يغلب عليهم الاشمئزاز والارتياع ، او الاندهاش والضحك ، لما فيها من العظائم والنقائض والسخافات . وهو ما يدلّ على ان اول من لفّق هذه اليمين الغريبة كان احد كتاب المسلمين ، جمع رُقَعها من كل ثوب ، وتلقّط الفاظها وجملها من كل حدب وصوب ، وقرن بعضها ببعض على ما بينها من التنافر والشذوذ ، وألّف منها هذا الاسلوب السمج الذي أُريد به التهويل والسخرية والاهانة . وقد روى القلقشندي عن محمد بن عمر المدائني في كتاب « القلم والدواة» ان اصل هذه الأيمان التي يُحلَّف بها النصارى كان في زمن الفضل بن الربيع . فحكى عن بعض كتاب العراق انه قال:

« اراد الفضل بن الربيع — يعني وزير الرشيد — ان يستحلف كاتبه عوناً النصراني . فلم يدرِ كيف يستحلفه . فقلت : وَلّني استحلافه . قال : دونك. فقلت له : احلف بالهك الذي لا تعبد غيره . ولا تدين الا له . وإلّا فخلعتَ

*) فصل من كتاب للمؤلف بعنوان « الروم الملكية في الآثار الاسلامية »

النصرانية . وبرئت من المعمودية . وطرحت على المذبح خرقة حيضة يهودية . وقلتَ في المسيح ما يقوله المسلمون « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم . خلقه من تراب . » وإلّا فلعنك البطريرك الاكبر والمطارنة والشمامسة والقمامسة والديرانيون . واصحاب المجامع عند مجتمع الخنازير (كذا) . وتقريب القربان . وبما استغاثت به النصارى ليسوع . والّا فعليك حرم[1] ثلثمائة وثمانية عشر اسقفاً الذين خرجوا من نيقية حتى اقاموا عمود النصرانية . والّا فشققتَ الناقوس وطبخت به لحم جمل . واكلته يوم الاثنين مدخل الصوم . . . ورميت الشاهد بعشرين حجرًا جاحدًا بها . وهدمت كنيسة لدّ وبنيت بها كنيسة اليهود . وخرّقت غفارة مريم وكهنونة داود . وانت حنيف مسلم . وهذه اليمين لازمة لك ولعقبك من بعدك . قال . فقال عون : انا لا استحلّ ان اسمع هذه . فكيف اقولها . وخرج من جميع ما طالبه به الفضل . فامر بها الفضل فكُتبت نُسخاً وفُرقت على الكتاب . وامرهم بحفظها وتحليف النصارى بها . »[2]

وما لبث الكتاب ان اضافوا الى هذا الخلط والسخف — كطبخ لحم الجمل بشقاق الناقوس — شناعات ورقاعات اخرى . واستقرّت صورة اليمين على نُسخ شتى ، لا تتباين الا في بعض زياداتها . نختار منها اقلها خطلًا وقذرًا . وهي الصورة التي اشار اليها العمري في الفصل المعقود على أيمان النصارى الملكانيين . وهذا نصّها ببعض اصلاح فيه :

« انني والله . والله . والله العظيم . وحق عيسى بن مريم . وامه السيدة مريم . وما اعتقد من دين النصرانية (افعل كيت وكيت) وإلّا ابرأ من المعمودية . واقول ان ماءها نجس . وان القرابين رجس . وبرئتُ من مزبوحنا المعدان والاناجيل الاربعة . وقلت ان متّى كذوب . وان مريم المجدلانية باطلة الدعوى في إخبارها عن السيد يسوع المسيح . وقلت في السيدة مريم قول اليهود . ودنت بدينهم في الجحود . وانكرت اتحاد اللاهوت بالناسوت وبرئت

---

١) في الاصل المطبوع : جرم ، بالجيم . وهو غلط

٢) صبح الاعشى ، ج ١٣ : ص ٢٨٧–٢٨٨

من الآب والابن والروح القدس . وكذبت القوس . وشاركت في ذبح الشامس . وهدمت الديارات والكنائس . وكنت ممن مال على قسطنطين بن هيلاني وتعمد أمه بالظائم . وخالفت المجامع التي اجمعت عليها الاساقفة برومية والقسطنطينية . ووافقت البردعاني بانطاكية . وجحدت مذهب الملكانية . وسفهت رأي الرهبان . وانكرت وقوع الصلب على السيد ايسوع . وكنت مع اليهود حين صلبوه . وحدتُ عن الحواريين . واستبحت دماء الديرانيين . وجذبت رداء الكبرياء عن البطريرك . وخرجت عن طاعة الباب . وصمت يوم الفصح الاكبر . وقعدت عن اهل الشعانين . وابيت عيد الصليب والغطاس . ولم احتفل بعيد السيدة . واكلت لحم الجمل . ودنت بدين اليهود . وابحت حرمة الطلاق . وخنت المسيح في وديعته . وتزوجت في قَرَن بامرأتين . وهدمت بيدي كنيسة قامة . وكسرت صليب الصليوت . وقلت في البتوة مقال نسطورس . ووجهت الى الصخرة وجهي . وصديت عن المشرق المنير حيث كان المظهر الكريم . والآ برئت من النورانيين والشمشعانيين . ودنت بغير دين النصارى . وانكرت ان السيد ايسوع احيا الموتى وابرأ الاكمه والابرص . وقلت انه مربوب . وانه ما رؤي وهو مصلوب . وانكرت ان القربان المقدس على المذبح صار لحم المسيح ودمه حقيقة . وخرجت في النصرانية عن لاحب الطريقة . والا قلت بدين التوحيد . وتعبدت لغير (ربّ) الارباب . وقصدت بالمطانيات غير طريق الاخلاص . وقلت ان المعاد غير روحاني . وان بني المعمودية لا تسيح في فسيح السماء . واثبتُ وجود الحُور العين في المعاد . وان في الدار الآخرة التلذذات الجسمانية . وخرجت خروج الشعرة من العجين من دين النصرانية . واكون من ديني محروماً . وقلت ان جرجس لم يُقتل مظلوماً . »[1]

ولا يخفى ما في هذا الخلط والخبط الغريب من اللغو والحشو والابهام ، وعدم التلاؤم والتناسب في نسق المعاني حبًّا بالسجع ، مع كثرة التكرار للمعنى الواحد بالفاظ مختلفة ، كقوله : « دنت بدين اليهود . ودنت بدينهم في الجحود .

---

١) التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٥٢-١٥٣

وقلت بدين التوحيد . ودنت بغير دين النصارى . وخرجت خروج الشعرة من العجين من دين النصرانية . واكون من ديني محروماً . » وفيه ايضاً ما هو غامض كالمعمى لا يتبين له تفسير صحيح ، كقوله « جذبت رداء الكبرياء عن البطريرك . وقعدت عن اهل الشعانين » . ولا يبعد انه اراد برداء البطريرك ما يُسمَّى عند الملكية بالمنتية . ويعني بجذبه خلعَ سلطان البطريرك كالخروج عن طاعة الباب . واظرف ما هنالك اكل لحم الجمل . ولا ندري في اي كتاب من كتب الفِرَق النصرانية وردت حرمته . وانما هي معروفة عند اليهود . ويُشبه ان يكون التقزّز من اكله عادة كانت مختصة بالملكيين فقط ، دون النساطرة واليعاقبة ، لرغبة هاتين الطائفتين دائماً في مجاملة المسلمين ، ومجاراة اشياعهم من نصارى قبائل العرب المشهورين بقَرَمهم الى هذا اللحم . ومما يثبت ذلك ما رواه البطريرك ميخائيل السرياني في تاريخه ، بعد ان ذكر توسط البطريرك الملكي افرام الانطاكي لدى الحارث بن جبلة لاقناعه بقبول المجمع الخلقيدوني . قال : « ولما تعذر على افرام ان يثني الحارث عن رأيه الحَّ عليه ان يتقرّب من يده . فقال له الحارث : « ادعوك الى تناول الطعام معنا . واوعز الى جماعة باللسان العربي[1] ان لا يُحضروا على الخوان الا لحم الجمل . فلما اتوا به . قال الحارث لافرام : « بارك مائدتنا . » فاضطرب البطريرك وامسك . فاخذ الحارث في الاكل كعادته . فقال له افرام : « قد نجست المائدة لانك احضرت امامنا لحم الجمل . » فاجابه : « لماذا تُريد ان تُكرهني على تناول قربانك . وانت ترى انك تتنجس بطعامي . » [2]

وقد تكلف القلقشندي تفسير بعض ما في هذه اليمين . وبنى على اقوالها اعتبارات ونتائج شتى ذكر من اجلها ان للنصارى اشياء يعظّمونها ، واشياء

---

١) هذا دليل ظاهر على ان البطريرك افرام كان لا يفهم العربية . ولا شك ان الحارث ابن جبلة كان يخاطبه بالسريانية او الرومية . وكان الحارث بطريقاً للروم في الشام ملّكاً على بني غسان . وقد سافر غير مرة الى القسطنطينية ، وتوسط لدى يستينانوس ويستينوس في شؤون كنيسته اليعقوبية . فلم يكن له بدّ من تعلم الرومية .

٢) *Chronique de Michel le Syrien*, t. II, p. 247-248.

يحرّمونها واخرى يستعظمون الوقوع فيها . قال في بعضها :

« اما ما يحرمونه فانهم يقولون بتحريم لحم الجمل ولبنه كاليهود . ويقولون بحلّ لحم الخنزير خلافاً لليهود . وهو ما ينكره عليهم اليهود من مخالفة احكام التوراة .

« ويحرمون صوم الفصح الاكبر . وهو يوم فطرهم من صومهم الاكبر .

« واما الاشياء التي يستعظمون الوقوع فيها :

« فمنها القعود عن اهل الشعانين . وهم اهل التسبيح الذين كانوا حول المسيح عليه السلام حين ركب الحمار بالقدس . ودخل صهيون يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . وهم حوله يسبّحون الله تعالى ويقدسونه .

« ومنها صوم يوم الفصح الاكبر (وقد نسي انه سبق وذكره بين المحرمات) . وصرفُ الوجه في الصلاة عن الشرق . واستقبال صخرة بيت المقدس موافقة لليهود .

« ومنها خيانة المسيح في وديعته . وذلك انهم يزعمون ان كل ما خالفت فيه فرقة من الفِرَق الثلاث الفرقة الاخرى كقول الملكانية ان المعاد جسماني . وقول اليعقوبية ان المعاد روحاني . فان الفرقة الاخرى يستعظمون الوقوع في ما ذهب اليه مخالفها . وكذلك كل ما جرى هذا المجرى . »[1]

ولا ندري اين وجد القلقشندي مثل هذه الشروح على ما في بعضها من سوء التأويل وقلة الوضوح . ومن الغريب انه بعد ان نسخ قول الملكية في اليمين المتقدمة « قلتُ ان المعاد غير روحاني »، لم يفطن الى ما فيه من المناقضة لما رواه عنهم ان من اقوالهم « ان المعاد جسماني » . ومع انه نقل إنكارهم في القسم « ان في الدار الآخرة التلذذات الجسمانية » وهو في غاية الجلاء والصراحة عاد فزعم ان من معتقدهم « ان في الآخرة التلذذات الجسمانية بالاكل والشرب والنكاح وغير ذلك كما يقوله المسلمون »[2] . وهو في غاية الذهول والتشنيع والتخليط والتناقض .

---

١) صبح الاعشى ، ج ١٣ : ص ٢٨١–٢٨٧

٢) صبح الاعشى ، ج ١٣ : ص ٢٧٧